(١)
المصير فى مواجهة الهوية

يبدأ هذا الكتاب كما ينتهى، بسلسلة من الأسئلة عن الهوية الوطنية، الإنجليزية والأمريكية. أولاً، يأتى الإنجليز، فى السياق التاريخى على الأقل. من هم؟ ما معنى أن تكون إنجليزيًا؟ هل هناك الكثير جدا أم القليل جدا مما يتعلق بالإنجليزية؟ هل يمكن أن يكون رجل أسود إنجليزيًا؟ أم أن جزءًا من التعريف عنصرى؟ هل يمكن أن يكون المسلم إنجليزيا؟ أم أن جزءًا من التعريف دينى؟ وهل يجب لكى تكون إنجليزيا أن تحب انجلترا؟ أم يكفى أن تكون فقط مولودا فى انجلترا؟ هل جزء من التعريف قانونى؟ أم أنها حالة عقلية؟ وما علاقة هذا بالتاريخ الإنجليزى؟

من الأصعب طرح أسئلة مشابهة عن أمريكا؛ إذ إن هذه ليست هى الموضوعات التى تطرأ على الذهن بصورة تلقائية. فحقيقة أنه لا توجد كلمة Americaness (الأمريكانية) فى الاستخدام المنتظم، والمثال الوحيد الذى صادفنى كان موصولا بقوة بالوعى الذاتى (American - ness) يجب أن تنبهنا فى الحال إلى وجود فوارق أساسية. وقليل من الأمريكيين قد يجدون السؤال «ما معنى أن تكون أمريكيا؟» جديراً بأن يطرح، ولا السؤال «هل يمكن لرجل أسود أو رجل مسلم أن يكون أمريكيا؟» فبالنسبة لأى واحد على يسار العنصرية الصريحة، يجب أن تكون الإجابة تلقائيا بنعم، لا مشكلة فى هذا.

وإذا أعدنا صياغة الأسئلة على نحو مختلف قليلاً، بحيث نضع المصير بدلا من الهوية، فإننا نواجه على الفور بأمور يختلف الأمريكيون حولها بقوة ويأخذونها بجدية بالغة، إن الإنجليز هم الذين بدأوا فى مواجهة مشاكل فهم السؤال. ما مصير انجلترا؟ ماذا يمكن أن يعنى هذا؟ أن تهزم إلى الأبد من أستراليا فى الكريكيت؟ ولكن المصير هو مايتناقش حوله الأمريكيون إلى ما لانهاية. إن المعنى الحقيقى أو

الغرض الحقيقى من عبارة «الطريقة الأمريكية» التى تسمى أحيانًا «النزعة الأمريكية»، هو الأيديولوچية أو العقيدة الأمريكية. ومن الأمور ذات الدلالة أنه لم يصادفنى المعادل اللغوى عن «النزعة الإنجليزية» Englandism, Englishism وحيثما تكون هناك كلمة غير موجودة فى اللغة، فيرجع السبب إلى أن الناس يشعرون أنهم يستطيعون فهم عالمهم بدونها. ويمكن أن يكون العكس صحيحًا أيضا. ربما يحتاج الناس إلى مدّ نطاق لغتهم؛ لكى يوسعوا من نطاق إمكانيات الفكر. وقليل من الانتباه «للنزعة الأمريكية» و«النزعة الإنجليزية» يفعل العجائب.

ومن المذهل أيضًا أنه حيثما يكون هناك شيء مثل «نشاط غير أمريكى» - مثلا السلوك المزعوم المناصر للشيوعية، الذى حققت فيه محاكم التفتيش الأمريكية تحت قيادة السناتور چوزيف ماكارثى فى أوائل الخمسينيات من القرن العشرين - يكون من الصعب تصور ما يمكن أن يتكون منه النشاط «غير الإنجليزى»، ويكون من دواعى السرور الإيجابية التفكير فى لجنة يشكلها مجلس العموم للتحقيق فيه. ومن المرجح كثيرًا أن يكون هذا فى منطقة «السلوك السيء» وليس فى منطقة السياسة الرديئة، أو ربما يكون نوعًا من الانتهاك للقواعد المستقرة لدى الإنجليز الذين عرفوا بالتحكم فى أنفسهم عاطفيًا، وترفعهم. وفى هذا الخصوص لا يكون الوصف «غير إنجليزى» وصفًا سلبيًا بصفة خاصة. فالعمات المعذبات اللاتى يعتقدن أن الإنجليز بصفة عامة مقفلون للغاية وباردون عاطفيًا تجاههن، لا يترددن فى أن يحثنهم على أن يكونوا «أقل إنجليزية» فى التعبير عن مشاعرهم. ولا يرد على البال أن يطلب كاتب أمريكى مسئول من الأمريكيين أن يكونوا «أقل أمريكية».

ومن المحتمل أن يكون من المفيد جدًا للإنجليز (أيا كانوا) أن يعتبروا أمريكا مجتمعًا موازيًا ولكنه مختلف، وأن يتعلموا من التشابهات والاختلافات، وبالتالى من الأسباب. بل إنه ربما يكون مفيدًا للأمريكيين أن يقوموا بهذه العملية أيضًا - وربما يكون هذا أكثر فائدة مما يدرك معظم الأمريكيين فى البداية، والبعض يفعل هذا. وفى كتابه «American Exceptionalism» يؤكد سيمور ليبست على أن «من المستحيل أن نفهم بلدًا دون أن نرى كيف يختلف عن البلدان الأخرى، وأولئك الذين يعرفون بلدًا واحدًا فقط لا يعرفون أى بلد». وهو أمر ضرورى لهذا الموضوع خاصة، طالما أن مصطلح «استثنائى» يتضمن نموذجًا قياسيًا خرجت أمريكا عليه.

ولكن مقارنتنا بين انجلترا وأمريكا قد لا تخدم هذا الغرض، طالما أن هناك، من الناحية التاريخية على الأقل، أشياء أيضًا مثل «الاستثنائية الإنجليزية» وحتى ولو لم تكن تسمى بهذا الاسم عادة. ومن ثم فإن انجلترا لا تستطيع تقديم النموذج القياسى. والاستثناءان متصلان ببعضهما: كيف بالضبط؟ هذا هو موضوع هذا الكتاب.

هاتان الأمتان تشتركان فى أصولهما وفى تاريخها إلى نقطة بعينها. والسؤال عن كيف ولماذا صارتا مختلفتين قد يلقى الضوء على الشخصية الوطنية على جانبى المحيط الأطلنطى. وربما تكون الممارسة قد أعطت الأمريكيين أسبابًا أكثر للفخر بتمايزهم الأمريكى، وربما يكون الإنجليز قد تعلموا المزيد من الأسئلة المفيدة حول مصيرهم، ويكون الأمريكيون قد تعلموا أسئلة مفيدة عن هويتهم. وربما يسأل أحد الانجليز على سبيل المثال، مثلا: ألا توجد مشكلة حقًا حول هوية الأمريكيين السود؟ من الخارج، يبدو أنه كانت هناك مشكلة. ففى أرض الأحرار، ماذا يعنى أن تجبر على أن تكون أمريكيًا، مثلما كان أسلاف العبيد الأوائل قد أجبروا؟ أو أن تكون منحدرًا من مثل هذا الأصل؟ هل هناك استثناءات فى الاستثنائية الأمريكية؟

هذه المسائل لم تكن مختلفة منذ مائة عام مضت؛ إذ إن الكاتب الأسود والزعيم السياسى الشهير دى بوا قال سنة ١٩٠٣ م:

«إنه شعور خاص، هذا الوعى المزدوج، هذا الإحساس بالنظر دائما إلى الذات من خلال عيون الآخرين، والحكم على روح المرء بمقياس عالم ينظر إليه بالاحتقار والشفقة. ويشعر المرء على الدوام بثنائيته - أمريكى وزنجى، روحان متصارعتان غير متصالحتين، نموذجان يتقاتلان داخل جسد أسود واحد، لا تحفظه من أن يتمزق أشلاء سوى قوته العاتية.

إن تاريخ الزنجى الأمريكى هو تاريخ هذا النضال - هذا الشوق - للحصول على رجولته الواعية بالذات، وأن يضع ذاته المزدوجة فى ذات أفضل وأكثر صدقًا. إنه لن يضفى الصبغة الأفريقية على أمريكا؛ لأن لدى أمريكا الكثير الذى تعلمه للعالم ولأفريقيا. وهو لن يذيب دماء الزنجية فى فيضان الأمريكية البيضاء؛ لأنه يعرف أن الدماء الزنجية تحمل رسالة إلى العالم. إنه ببساطة يرغب فى أن يجعل من الممكن للإنسان أن يكون زنجيًا وأمريكيًا...».

وفى كل من انجلترا وأمريكا، سيطر على النساء أيضا شعور قوى بأنهن

مستبعدات من عمليات صنع الهوية الوطنية فى الماضى، لدرجة أن هناك أسئلة جادة عما إذا كان بوسعهن حمل هوية لم تشاركن فى صنعها. وفى انجلترا، فضلاً عن ذلك، هناك الآن جماعات مهمة أصولها ليست أنجلو-سكسونية بيضاء بروتستانتية، ولم يصلوا على الرغم من عيشتهم فى انجلترا، إلى اعتبار أنفسهم إنجليزاً بمعنى الكلمة. ومسألة ما إذا كانت كلمة «إنجليزى» نفسها تشير إلى جنس أو أمة لم تجد حلاً، مع وجود بعض الناس السود المستعدين لاستخدام الكلمة للدلالة عليهم، والبعض يفضل المصطلح «بريطانى» الأقل تحديداً.

و «الإنجليز البيض» أنفسهم، فى الوقت نفسه، يبدون أكثر استعداداً من الناحية النظرية لقبول مفهوم «الإنجليز السود» مما هم فى الواقع. ويرجع هذا من ناحية إلى العنصرية، ولكنه يرجع أيضا من ناحية أخرى إلى العكس-عزوف نبيل عن فرض الاندماج الثقافى فى «الإنجليزية» بطريقة أصعب أو أسرع مما يراه الأفريقيون أو الآسيويون مقبولاً. بيد أن إحساس «دى بوا» باغتراب السود فى أمريكا منذ مائة سنة مضت ليس غائبًا عن انجلترا اليوم. وسيبيل فوينكس التى ولدت فى مستعمرة جويانا البريطانية واستقرت فى انجلترا سنة ١٩٥٦م كتبت عن الحيرة المضنية والالتباسات فى هوية البريطانيين السود فى كتابها «Belonging To Britain»:

«إنها لحقيقة أن المرء أسود وينتمى إلى انجلترا. فأنت تنتمى-وأنت تعلم أنك تنتمى. ولا يمكن لأحد أن ينتزع هذه الحقيقة. وأنت تصنع مكانك فيها؛ لأنك تعرف أنك تنتمى إليها. ولكن ليس من الممكن أن تكون أسود وأن تشعر أنك تنتمى إلى بريطانيا. ليس هناك فرق، فبسبب إنسانيتك تمضى فى العمل، وتصلى وتأمل بأنه سيكون هناك قبول إن آجلاً أو عاجلاً».

ومع هذا، فإن هناك «إنجليز» من الكاثوليك البيض سوف يقولون إن سيبيل فوينكس تمتلك بالفعل العلامة المميزة للإنجليزية، التى صارت مهمة حقًا فى الأربعة قرون الأخيرة-أى البروتستانتية-ولذلك فهى بالفعل وشمة للإنجليزية حسبما تحددت تاريخيًا، وبطريقة لا تنطبق عليهم.

والإنجليز والأمريكيون (من كل جنس ولون) لديهم من الأمور المشتركة ما هو أكثر بكثير مما بينهم من اختلافات، على الرغم من أن معظمها مخبوء تحت السطح. فالقصص التى يروونها لأنفسهم عن أنفسهم متداخلة. وجزء من أن تكون أمريكيا

هو «ألا تكون إنجليزيًا» بمعنى ما، وكذلك يعنى «كنت إنجليزيًا ذات مرة» (ويبدو أن هذا ينطبق حتى على أولئك الذين لم يكن أجدادهم من الإنجليز). وإذا لم يكن هناك شيء آخر، فإن الرابطة الإنجليزية لها ثقل كبير فى الموروث. وجزء من أن تكون إنجليزيًا «ألا تكون أمريكيا»، وهو مزيج بين الحلو والمر من الازدراء والمودة والحسد. حتى مع هذا، فإن الإنجليز لديهم ثقة مستقرة فى كونهم إنجليزاً أكبر من ثقة الأمريكيين فى كونهم أمريكيين. وعلى أية حال، فإن الإنجليز يقولون لأنفسهم نحن الذين كنا نحكم ذات مرة إمبراطورية كانت تغطى ربع الكرة الأرضية، وبذلك اكتسبنا حق الإعلان عن أننا «كنا هناك وفعلنا ذلك» حتى ولو لم يكلفوا أنفسهم مشقة هذا الإعلان.

وكتبت صحفية أمريكية تعيش فى انجلترا، وهى برندا مادوكس، بعد الهجمات الإرهابية على نيويورك وواشنطن سنة ٢٠٠١م، بوقت قصير، فى صحيفة «الجارديان»:

«واحد من أقوى الدروس التى تعلمتها من طفولتى فى ماساشوستس هو غرض الولايات المتحدة. فقد بدا وكأن التاريخ الإنسانى برمته يؤدى إلى خلق بلد الرب؛ فيها الحرية والعدالة للجميع... لم تكن أمريكا القلعة، وإنما أمريكا الجميلة، آمنة - يحميها الرب والجغرافيا - «من المحيط الأطلنطى إلى المحيط الهادى». وحينما جئت لأعيش فى انجلترا فى عصر كينيدى، كنت أتكلم بثقة مفرطة عن تفوق الطريقة الأمريكية. وبدأت ذات يوم أقول «فى بلادى...» حينما قاطعنى شاب لبق بقوله: «فى بلادى لا نقول فى بلادى». وصدمنى اللوم المهذب بقوة الكشف؛ إذ إن هناك بديلاً للوطنية غير الواعية. ففى بلد متسامح، ناضج واثق بنفسه، لم يكن من الضرورى أن تضع يدك على قلبك وتقول إننى أحب هذا البلد، أو حتى تشير إليه بضمير الملكية. فهل سمعتم أبدًا من يقول «ملكتنا» أو حتى «رئيس وزرائنا»؟.

وربما يكون وصف متسامح، وناضج، وواثق من نفسه، وصفًا مجاملاً إلى حد ما لبريطانيا الحديثة، على الرغم من أن الفكاهة والسخرية المعتادة فى وصف الإنجليز لأنفسهم، طالما بقيت، لا يمكن أن تكون علامة على عدم الشعور بالأمان. ويمكن فقط للإنجليز أن ينشدوا «أرض الأمل والمجد» بمزيج من التعاطف والسخرية. وقد يعتبر الأمريكيون نفس المقاربة لنشيد «بارك الرب أمريكا» مقاربة

غير متدينة ولا ولاء فيها. وربما لهذا السبب يمكن للإنجليز أن يسألوا أنفسهم من الأسئلة الفاحصة أكثر مما يمكن للأمريكيين أن يفعلوا؛ إذ إن لديهم عدداً أقل من البقرات المقدسة.

والبلد الجغرافي ليس مجرد مساحة على الخريطة والناس الذين يعيشون فيها، ولكن الوطن هو «جماعة متخيلة»، فكرة ماثلة في أذهان أعضائها. فهم يسكنون بلادهم ويمرون بتجاربهم فيها، وهو ما يُخصّب خيالهم بذكريات مرئية ومسموعة ومشمومة. وهم يستوعبون هويتهم من خلال أحاسيسهم الفردية وكذلك من خلال ذكرياتهم الجماعية. وأن تكون إنجليزيا أو أمريكيًا يعني أن تكون عضواً في مجتمع بعينه، في وطن، في جماعة من الناس لهم أشياء أساسية معينة مشتركة فيما بينهم (على الرغم من أن التحديد الدقيق لهذه الأشياء ربما يكون محل جدال). وإذا ما كانوا إنجليزاً أو أمريكيين، فإن علاقتهم على مدى ما يقرب من خمسمائة سنة بوطنهم، حكمت خيالهم الديني وكل أنواع الخيال الأخرى. وربما يكون هذا هو السبب في أن الإحساس بهذه الأمور عميق إلى هذه الدرجة. فأنت تكون إنجليزيًا أو أمريكيًا يتعلق هناك «بالرب والكون وكل شيء».

ومفهوم الجماعة المتخيّلة هو مفهوم ندين به إلى عالم الاجتماع الأمريكي الحكومي بندكت أندرسون، ففي كتابه «Imagined Communities» يجادل بأن الوطن يوجد في مخيلة أعضائه، لأنه حتى في أصغر الأوطان، لا يمكن لأي مواطن أن يعرف كل أبناء الوطن الآخرين، ولكنه مع هذا يشعر أنه مرتبط بهم:

«... إنها جماعة مُتخَيَّلة؛ لأنه بغض النظر عن عدم المساواة الفعلية والاستغلال الذي قد يكون سائدا في كل الأوطان، فإن الوطن دائما يُنظر إليه على أنه رفقة عميقة وأفقية. إنها في التحليل الأخير علاقة الأخوة التي تجعل من الممكن، على مدى القرنين الأخيرين، أن تقبل هذه الملايين العديدة من البشر على الموت في سبيل مثل هذه التخيلات المحدودة».

ومن هنا فإن المواطنين في مثل هذا الوطن يشتركون في هوية مع أناس آخرين لا يعرفهم هو أو هي، ولكن يمكن تخيلهم. وهو لا يشعر بهذه الرابطة مع أبناء الأوطان الأخرى الذين يعيشون فيما وراء الحدود المرسومة لهذا الوطن (وهي حدود غير معروفة أيضا، ولكنها أيضا متخيلة إلى حد ما).

ومن الجدير بالاستكشاف بطريقة أكثر دقة ماذا يستدعى ذلك الجهد فى التخيل. **ففى الحالة الإنجليزية، كان الجهد المطلوب تقليديًا عملاً من أعمال الذاكرة أساسًا. والبحث عن إجابة للسؤال «من نحن»؟ يبدأ بالسؤال، أولا «من كنا»؟ وما لم نعرف من كنا، فإن الإنجليز سيقولون لأنفسهم نحن لا نعرف من نحن. ولكن فى الحالة الأمريكية، يكون فعل التخيل فعل إرادة. والبحث عن إجابة للسؤال «من نحن»؟ يبدأ بسؤال «من نريد أن نكون؟».**

وهكذا، فإن إحدى الإجابات تعود بنا القهقرى فى الزمن، على حين تشير الإجابة الأخرى إلى الأمام. وإحدى الإجابات واضح أنها أكثر حيوية، والأخرى أكثر سلبية. فالمستقبل يمكن تغييره، ولكن الماضى لا يمكن تغييره (على الرغم من أنه يمكن تغيير الطريقة التى نتخيله بها). **وفى الحالة الأمريكية، فمن الواضح أن خط الأساس هو الثورة الأمريكية والنتائج المباشرة لها على الخيال الأمريكى؛ إذ إن الآباء المؤسسين، فى وثائق مثل إعلان الاستقلال، والأوراق الفيدرالية، والدستور، وكذلك فى نصوص كثيرة أقل معاصرة، كانوا يسألون أنفسهم بوعى سؤال «من نريد أن نكون؟». والإجابة، وهى شاسعة فى مداها، أنهم كانوا يريدون أن يكونوا «بلد الرب»: كانوا يريدون أن يكونوا المجتمع الكامل. وكما أعلن توماس پين نحن فى قوتنا سنبدأ العالم من جديد.**

كانوا يتخيلون أمريكا موجودة بفعل الإرادة. وما تخيلوه لم يكن وصفًا لما كان موجودًا آنذاك؛ بسبب الظلم الموروث للعبودية ومسألة الهنود الحمر. كان ما تخيلوه مثالاً، يجب أن تنمو أمريكا فى اتجاهه. ويصف بولين ماير فى كتابه «American Scripture» إعلان الاستقلال بأنه «تقرير للقيم التى تعبر أكثر من غيرها، لا عن السبب فى انفصالنا عن بريطانيا، ولا ماذا نكون أو ماذا كنا، وإنما تعبر عما يجب أن نكون عليه، وصفة من المثل التى تربطنا ببعضنا كشعب، ولكنها كانت أيضا فى مركز بعض المنازعات الحاسمة فى تاريخنا».

هذا هو السبب فى أن المبادئ السامية التى عبر عنها رجال من أمثال چورج واشنطن وتوماس چيفرسون، وكلاهما من أصحاب الرقيق، لا يجب استبعادها باعتبارها نفاقًا أو أمورًا تدعو إلى السخرية، وإنما باعتبارها أكثر قناعاتهم إخلاصًا. وفعل التخيل الأمريكى لم يكن فعلاً من أفعال الذاكرة كما هو واضح؛ لأنه لم تكن هناك أمريكا موجودة - سوى باعتبارها مستعمرة - قبل ذلك الزمان. وبقدر ما

يتداخل الماضى فى ذلك الحاضر والمستقبل، فإنها كانت ذكرى عمل سابق من أعمال الإدارة، وهو الفعل الذى قام به المستوطنون الأوائل فى نيو إنجلاند والذين عقدوا العزم على البقاء والتحمل.

بيد أنهم لم يحددوا أنفسهم على نحو ما كانوا عليه من قبل. إنهم لم يريدوا أن يكونوا هم نفس من كانوا من قبل. والواقع أن البيوريتان فى نيو إنجلاند لم يريدوا هذا بقدر ما كان عبورهم الأطلنطى هربًا منه؛ لكى يكونوا شيئًا مختلفًا. وقبل الانتشار السريع لعدوى الأحلام الثورية من الشمال إلى الجنوب فى منتصف القرن الثامن عشر، كان المستوطنون فى ڤيرچينيا هم الأكثر تحفظًا. فقد كانوا أكثر اهتمامًا بتخيل أن جماعتهم موجودة بفعل الذاكرة. إذ كانوا راغبين فى أن يتشبهوا بالطبقة الراقية الإنجليزية، وأن يفعلوا ما كان عليهم أن يتذكروا أن الطبقة الراقية الإنجليزية تفعله. هاتان الطريقتان فى تخيل أمريكا توافقتا بالقوة سويًا تحت ضغط الغزو العسكرى البريطانى. ولكن التوتر ظل قائمًا واصطدم الاتجاهان ثانية فى الحرب الأهلية الأمريكية حينما انتصر فعل الإرادة مجددًا على فعل الذاكرة. ولا يمكن انتزاع هذا تمامًا من الحرب الأهلية الإنجليزية فى القرن السابق، حينما طرح الجناح اليمينى من الكاڤاليه عمل الذاكرة ـ الاستمرارية، الملكية والكنيسة بل وحتى الطراز ـ ضد الجناح اليسارى الذى طرح عمل الإرادة، وهو بناء مجتمع واضح ولكنه كامل (پيوريتانى).

وتفسيرات هذه الفروق ليست نفسية أو سياسية خالصة، وليست مرتبطة بـ «هنا» و «الآن». إنها تعكس أيضًا ما يفكر الناس فيه حول مكانهم فى العالم؛ وماذا كان واجبهم تجاه الرب وتجاه جيرانهم. وخط الأساس الإنجليزى المعاصر يصعب تمييزه بوضوح. وربما بالنسبة للجيل الحديث من الشعب الإنجليزى لا تزال ذكرى الحرب العالمية الثانية تعيش فى ذاكرتهم الجماعية. والأكثر حضورًا فى الذاكرة هى السنة التى وقفت فيها بريطانيا وحدها ـ ما بين سقوط فرنسا فى يونيو ١٩٤٠ م وغزو روسيا فى يونيو ١٩٤١ م. والواقع، وبعيدًا عن جلب الراحة إلى البريطانيين، أن النجاح الأولى الذى أحرزه الجيش الألمانى فى تقدمه تجاه موسكو، هو الذى زاد من إحساس البريطانيين بعزلتهم المكشوفة. ولم ينته هذا حقًا حتى دخلت الولايات المتحدة الحرب بعد أن هاجمها اليابانيون فى نهاية سنة ١٩٤١ م.

وهكذا فإن الإحساس بكونهم الأمة التى قاومت وحدها الشر المستفحل ـ الذى

تجسد فى الآلة النازية ـ كان إشارة إلى فترة طالت على مدى ثمانية عشر شهراً. وإذا تحدثنا بالتحديد، فإن بريطانيا، طبعًا، لم تكن وحدها. إذ كانت الإمبراطورية البريطانية أيضا مشتبكة فى الحرب، سواء كانت تريد ذلك أم لا ـ على الرغم من أنه بصفة عامة كان هناك دليل على أن مناطق آسيا التى حكمها البريطانيون، والتى اعتبرت مستعمرات بريطانية، كانت تفضل السيطرة اليابانية. والأملاك البريطانية ـ وهى بلاد مستقلة احتفظت بالتاج مثل أستراليا ونيوزيلاند وكندا وجنوب أفريقيا ـ كانت مشتبكة فى الحرب بإرادتها، بغض النظر عن الروابط التى تربطها بالبلد الأم. وعلى الرغم من هذا التأييد المعنوى ـ وكانت كندا فقط قريبة من المساعدة العملية ـ على مدى تلك الشهور الثمانية عشر، كانت انجلترا واعية تمامًا بحقيقة أن كل الذى كان يفصلها عن قوة الجيش الألمانى هو الواحد والعشرون ميلاً عرض القنال الإنجليزى. وبعد خسارة الدبابات والمدفعية فى الكارثة العسكرية بدنكرك، لم يكن لدى انجلترا جيش ميدانى فعال لمقاومة الغزو إذا حدث.

وقد نجا الإنجليز من هذه التجربة ليس بسبب ما أرادوا أن يكونوا، وإنما بسبب معرفتهم من كانوا هم. كان تاريخهم هو الذى لم يعطهم أى بديل تاريخى سوى المقاومة، لاسيما تاريخهم فى مقاومة العدوان الأوروبى. ولم تكن هناك حقيقة تاريخية معروفة أكثر من حقيقة أن انجلترا لم تتعرض لغزو ناجح من جيش أجنبى منذ سنة ١٠٦٦، وكما لو أن التسعمائة سنة التى انقضت قد وفرت خندقا حاميًا فى الفضاء العقلى أقوى حتى من مضايق دوفر. والحقيقة التاريخية الثانية المعروفة جيداً كانت هزيمة أسطول الأرمادا الإسبانى فى سنة ١٥٨٨ م، والثالثة انتصار نلسون على الأسطول الفرنسى (ومن ثم تجنب مخاطرة الغزو النابوليونى) فى معركة الطرف الأغر سنة ١٨٠٥م، كان هذا هو الذى زاد من صلابة العصب الوطنى سنة ١٩٤٠م: لقد كان الأمر يتعلق بما كانت عليه انجلترا، وما كان ما يزال قائمًا فى مخيلة مواطنيها. وكان هذا كافيا. لقد تولى الرب حمايتها؛ لأن الرب أراد أن تعود ثانية إلى ما كانت عليه من قبل. ولكن انجلترا كانت لا تحارب من أجل عالم أفضل، إلا إذا كان مفهومًا أنه يعنى عالمًا ليس فيه النازيون، لقد كانت تحارب لكى تبقى كما هى. وبسبب موارد الذاكرة المتاحة أمام خيالهم، استطاع الإنجليز مواصلة صمودهم وحدهم أمام النازى على مدى أكثر من سنة فيما كان حقًا ملحمة شجاعة مدهشة فى تاريخهم الطويل.

وسجل هذا لا يوجد بشكل خاص فى أية وثيقة بعينها، على الرغم من أن الخطب التى ألقاها «ونستون تشرشل» زمن الحرب تعتبر مجموعة رائعة من البلاغة الوطنية الإنجليزية. وإحدى فقراته الأكثر شهرة سوف تخدمنا من حيث هى مثال على الكل. وهذه هى الطريقة التى اختتم بها خطبته فى مجلس العموم فى منتصف يونيو ١٩٤٠م، حيث بدأ فى هذا السياق استخدام العبارة الخالدة «معركة بريطانيا»:

«إن ما أسماه الجنرال «ويجاند» معركة فرنسا قد انتهت. وأتوقع أن تكون معركة بريطانيا على وشك البدء. وعلى هذه المعركة يعتمد بقاء الحضارة المسيحية. وعليها تعتمد حياتنا البريطانية الخاصة، والاستمرار الطويل لمؤسساتنا وإمبراطوريتنا. إن كل حنق العدو وقوته لابد أن ينقلب علينا بسرعة. وهتلر يعرف أنه سيكون عليه أن يكسر هذه الجزيرة أو يخسر الحرب. وإذا استطعنا أن نقف فى وجهه، فربما أمكن أن تكون أوروبا كلها حرة وربما تقدمت حياة العالم إلى الأمام فى أرض رحبة مشرقة. ولكن إذا فشلنا، فإن العالم بأسره بما فى ذلك الولايات المتحدة، وبما فى ذلك كل ما عرفناه واهتممنا به، سوف يغوص فى غياهب عصر ظلمات جديد أكثر شؤمًا وربما أطول مدة بأضواء العلم المنحرف عن هدفه. فلننصرف إذن إلى واجباتنا، ونحمل أنفسنا على أنه إذا استمرت الإمبراطورية البريطانية والكومنولث ألف سنة، فإن الناس سوف يقولون: كانت تلك أروع ساعة فى تاريخهم».

هذا التمييز، بين أمريكا التى تتخيل نفسها موجودة بالإيمان فى المستقبل، وبين انجلترا التى تتخيل نفسها فى الوجود بتذكر ماضيها، يحمل بعض التطابق مع التقسيم التقليدى للأنماط السياسية فى كلا البلدين إلى معسكرين أيديولوچيين منفصلين، الهويج والتورى. إذ كان الهويج يؤمنون بالتقدم، أى أن الأمور مرسومة على أساس أن تتحسن، فبالنسبة لهم، الأفضل لم يأت بعد. أما التورى فكانوا يؤمنون بالتقاليد. وبالنسبة لهم الأفضل موجود هنا الآن، أو أنه كان موجودًا فى الماضى بالفعل. وهناك تورى فى أمريكا، وهويج فى انجلترا، ولكن هذه هى الأنماط السائدة: التفاؤل ضد الحنين إلى الماضى، القلق ضد القصور الذاتى.

إن تعريف الإنجليز لأنفسهم، وتصورهم على أنهم جماعة وطنية حسب مصطلحات أندرسون، يمكن أن نجده، بصورة ممتازة، فى الاحتفال الوطنى الذى

حدث بعد سنوات قليلة من نهاية الحرب، عند تتويج الملكة إليزابيث الثانية فى سنة ١٩٥٣م. لقد كان احتفالاً مجددًا، وكثيرا ما جرى وصفه فى الصحف على أنه بداية عصر إليزابيثى جديد (وبذلك احتفالاً بأمجاد العصر السابق). لقد كان تجديدًا لخيال قديم، ولم يكن تخيلاً لشىء جديد. لقد كان فعلاً أقل جسارة من تخيل الذات من الفعل الأمريكى، وعلى الأقل من الناحية الظاهرية، كان فعلاً من أفعال الخيال الدينى. ولا يعنى هذا أن الفعل الأمريكى فى التخيل الوطنى لم يكن دينيًا، فقط أنه لم يأخذ مكانه فى مجرى احتفال دينى مسيحى خاص مثلما حدث فى حفل التتويج. وبطرق أقل وضوحًا، كان الفعل الأمريكى أكثر، وليس أقل، دينية من الفعل الإنجليزى. وفى قلب الفعل الإنجليزى لتخيل الذات كانت الاستمرارية. وفى معظم الوقت لا يتطلب ذلك شيئا أكثر من القصور الذاتى العنيد (على الرغم من أنه فى سنة ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ م، كان يتطلب أيضا شجاعة فائقة).

وأهمية التتويج الذى جرى سنة ١٩٥٣ كما أمكن رؤيتها فى هذا الضوء، جرت دراستها بشكل أوفى فى فصل لاحق. وسوف أكتفى الآن بالنظر سريعًا إلى معادل أكثر معاصرة، وهو القسم وخطبة الافتتاح التى ألقاها الرئيس «چورج دبليو بوش» فى يناير ٢٠٠١م. فقد استخدم إحالات دينية صريحة، بيد أنه من الجدير بالملاحظة أن هذه الفقرات من خطبته لم تتسبب فى أى جدل. فمن المتوقع أن الرؤساء الأمريكيين سوف يتكلمون هكذا، بينما سيكون من غير المقنع أن يفعل أى رئيس وزراء بريطانى هذا. ففى بريطانيا، المكان الصحيح للاعتراف بيد الرب فى شئون الوطن هو حفل التتويج أو شىء شبيه به. وربما يكون لحفل تنصيب رئيس أمريكى ظل من التتويج. ففى خطابه استغرق السيد بوش بطريقة وطنية فى الحديث عن مكان أمريكا فى المشروع العظيم للأمور، فقد أعلن:

«الأمريكيون كرماء وأقوياء ومحترمون، ليس لأننا نؤمن بأنفسنا ولكن لأننا نحمل إيمانا بما يتعدى ذواتنا. وحينما تفتقد روح المواطنة هذه لا يمكن لأى برنامج حكومى أن يحل محلها. وعندما تكون هذه الروح موجودة لا يمكن لأى شر أن يقف فى مواجهتها.

فبعد توقيع إعلان الاستقلال، كتب رجل الدولة فى ڤيرچينيا «چون بيج» إلى توماس چيفرسون: «نحن نعرف أن السباق لا يكسبه الأسرع ولا المعركة يكسبها الأقوى. ألا تعتقد أن ملاكًا يركب الريح ويوجه هذه العاصفة؟»

وقد مرّ زمن طويل منذ تولى جيفرسون الرئاسة. وتراكمت السنون والتغييرات. ولكن الموضوعات الرئاسية التى كان عليه أن يعرفها فى ذلك اليوم: هى قصة وطننا الكبرى فى الشجاعة، حلمها البسيط فى الكرامة. لسنا نحن الذين كتبنا هذه القصة، وإنما من يملأ الزمن والخلود بمشيئة. بيد أن تحقيق هدف الرب هو واجبنا، وواجبنا يتحقق فى خدمة كل منا الآخر.

ونحن لا نتعب أبدا، ولا نستسلم أبدا، ولا ننتهى أبدا، وبذلك نجدد هذا الهدف اليوم؛ لكى نجعل بلادنا أكثر عدلاً وكرمًا، ولكى نؤكد كرامة حياتنا وكل حياة. هذا العمل يستمر. وتمضى هذه القصة.

وما يزال هناك ملاك يركب الريح ويوجه هذه العاصفة. فليبارككم الرب جميعا، وليبارك الرب أمريكا».

والحجة التى يقوم عليها هذا الكتاب هى أننا لن نصل أبدًا إلى أغوار هذه المسائل عن الهوية الوطنية والمصير الوطنى، حتى نؤمن بالبعد الدينى مثلما نؤمن بالأبعاد الأخرى، ونعطيه الوزن المناسب له مع الأبعاد الأخرى. وسوف نجد أنه لم يأخذ وزنه الصحيح فى الماضى - على مدى فترة طويلة أخذ وزنًا أكثر مما يستحق، وفى الوقت الحالى (كرد فعل بلا شك) أخذ وزنا أقل مما يستحق - ولكن أولئك الذين يطبقون أفكارهم الحديثة على الماضى يحملون عقلية حديثة، وهى فن المؤرخين فى التجاوز، ولكنهم لا ينجحون دائمًا.

والدين مكون داخلى أساسى أثقل وزنًا فى هذه القصص الوطنية مما قد يتوقع معظم الإنجليز أو الأمريكيين المحدثين. كما أنه غير عادى، وأشد مخالفة للأذواق الحديثة، وأكثر درامية فى تأثيراته. كما أنه مثير للجدل بشكل أشد كثافة، كما أن المجادلات مثيرة إلى أبعد الحدود. وهذا ليس نوعًا من الحفريات الجافة. إنه بحث عن البنادق التى ينبعث منها الدخان. وأولئك الذين يحبون توزيع اللوم على الجميع سيجدون متعة كبيرة. وحقيقة أن القراء المحدثين لم يعودوا يشاركون فى الخيال الدينى للقرن السادس عشر أو القرن الثامن عشر، لا تعنى أن هذه الأفكار غير شاملة، وإنما تعنى فقط أنهم لم يتعودوا عليها. والواقع أننا ربما نكتشف أننا ما نزال نشارك فيها بقدر أكبر مما كنا نتوقعه.

وفى كل من الحالة الإنجليزية والحالة الأمريكية، كان البعد الدينى يجيب على أسئلة

عن الهوية والوطنية والغرض، وهى أسئلة لم تتم الإجابة عنها بما يكفى بأية طريقة أخرى. والإنجليز متقدمون فعلاً على الأمريكيين فى البحث عن الحلول البديلة غير الدينية، ولكن هذا ليس أمرًا سهل المنال؛ إذ إنهم ما يزالون فى انتظار الإجابات التى يعرفون أنها لن تخدمهم بشكل جيد تمامًا بعد ذلك. والمقارنات هنا ربما تكون مفيدة للأمريكيين والإنجليز على السواء. وذات مرة كان بوسع الإنجليز أن يظهروا لأبناء عمومتهم الأمريكيين لمحة عن مستقبلهم الممكن، ويحذروهم من الأخطاء التى يجب تجنبها. وربما يكون الدرس أنه إذا توقف وطن مثل انجلترا أو أمريكا عن الإيمان بمصيره مرة، فإن المشكلة التالية الذى عليه أن يواجهها تكون حول مصيره. أو أن الوطن الذى لديه إحساس واضح بمصيره لن يجد صعوبة بشأن هويته.

من الواضح أن الاهتمام بالتاريخ الأمريكى لا يمكن أن يستبعد التاريخ الدينى. وحيث يبدو أن الكتّاب جميعا يتفقون على أنه بدون الدين لما كانت هناك أمريكا يكتبون عنها، وبالتأكيد لما كانت هناك نزعة أمريكية، ولا عقيدة وطنية، ولا إعلان مصير ولا استثنائية أمريكية. وليس من المدهش أن هناك شعورًا معاصرًا لدى معظم الأمريكيين الذين يكتبون عن الديانة الأمريكية. وحتى عندما يكون الكاتب مهمومًا بالماضى، فإنه لا يكون أقل توجهًا إلى الحاضر والمستقبل. وليس السبب فى هذا راجعًا فقط إلى أن الدين يبقى ضاربًا بجذوره فى أعماق طريقة الحياة الأمريكية. والحقيقة أن معظم هذه الكتابات تقوم بها، ولصالحها، الجماعة الأكاديمية. إنه خطاب من داخل المثقفين. وفى أمريكا (كما فى انجلترا)، فإن هذه إحدى البيئات الأكثر علمانية عقلانية، حيث يكون الدين أقل تجذرًا. بيد أن الأكاديميين ما يزالون يهتمون به، وإذا لم يكن جل اهتمامهم بما هو عليه الآن، فإنه ينصب على الكيفية التى كان عليها ذات مرة.

ولكن هذا ليس محل اهتمام الإنجليز. فإذا كان البحث فى حالة الروح الأمريكية منذ مائتى سنة مضت يُظَن أنه يلقى الضوء على حالة الروح الأمريكية الآن - ليس فقط من خلال التشابهات ولكن من خلال الاختلافات أيضا - فإن هذه المقاربة لا تحظى بتقدير كبير فى الحياة الفكرية للإنجليز. ويخرج سكروتون عن العادة وهو يقرر:

«بدون هذا البعد الدينى لا تظهر الأوطان والبلاد كهويات أخلاقية محددة فى وضوح. وبطبيعة الحال، يمكن أن تكون هناك دول بدون دين - والعالم الحديث ملىء بها... ولا يوجد طالب يدرس التاريخ الإنجليزى يفوته أن يرى أن الدين كان

منذ البداية مخلوطًا بمعنى التاريخ الإنجليزى، وأن تاريخ الديانة الإنجليزية وتاريخ انجلترا فى كثير من الحقب لا ينفصلان».

بيد أن هذا ليس رأيًا شائعًا. وأحد الأسباب هو أن هذه المناقشات غالبًا ما كانت فى الماضى ليست نتاجًا، كما فى هذه الحالة، بوصفها أوصافًا موضوعية لحقيقة ثقافية، ولكن بوصفها تأنيبًا أخلاقيًا من جانب أولئك الذين كان لهم اهتمام واسع بأن يرى الوطن يعود إلى طريقة الكنيسة. وإذا ما قيل لأحد إن أحدًا لا يمكن أن يكون وطنيًا دون أن يكون متدينًا، فإذن يمكن للمرء أن يكون إما وطنيًا ومتدينًا فى آن معًا، أو لا يكون وطنيًا ولا متدينًا. وإذ كان أمام الإنجليز الخيار، فإنهم مالوا تجاه الاختيار الأخير، حتى مع أن أولئك الذين قدموا الاختيار كانوا يريدون منهم الاختيار الأول.

ويبدو أحيانا كما لو أن هناك مؤامرة للتظاهر بأن الإنجليز لم يؤمنوا أبدًا بشىء يختلف عما يؤمنون به الآن، وهو ما يتجه، بأى معنى مذهبى أو تنظيمى، لأن يكون قليلا للغاية. فالمناخ الدينى قبل وقوع الحرب الأهلية الإنجليزية ما يزال يجتذب البحث العلمى. وقد حدثت طفرة إصلاحية فى نزعة المراجعة التاريخية فرضت إعادة التفكير ـ صوب صيغة أقل انتصارًا للقصة التاريخية الوطنية ـ فى جوانب بعينها من التراث المقبول عن التاريخ الإنجليزى فى القرن السادس عشر. وقد ظهرت هذه المناقشات فى الكتب، والمجلات والصحف والتليفزيون حول موضوعات كانت محرمة ذات مرة، مثل ما إن شكسبير (الذى حظى باختياره رجل الألفية الإنجليزى فى استطلاع للرأى) كان أو لم يكن كاثوليكيًا رومانيًا، وأولئك الذين قالوا إنه كان كذلك نالوا مكافآتهم بالنقاط، على الأقل فى هذه المرحلة من النقاش.

ولكن بينما استمرت سير الأفراد التاريخيين المتميزين أو غير العاديين تبيع بشكل جيد، فليس من المناسب للعصر أن يعول الكتّاب على أفكارهم أو مشاعرهم الدينية. والواقع، أنه نما انحياز ثقافى عام فى انجلترا يتناول الروابط الدينية، سواء فى الحاضر أو فى الماضى، إما على أنها غاية فى الخصوصية أو باعتبارها هامشية جدا بحيث لا تستحق الكثير من الالتفات.

وعندما قام روى هاترسلى، النائب السابق لزعيم حزب العمال ـ وهو الآن من مشاهير العمال وله عمود صحفى ـ بجذب الانتباه سنة ٢٠٠١ م إلى وجود أتباع

الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فى مراكز قيادية فى السياسية البريطانية، كانت هناك دهشة من نوع ما؛ لأنه ظن أن الأمر يستحق الذكر. إذ إنه أبرز أنه كان من الممكن تمامًا بحلول وقت الانتخابات العامة البريطانية التالية، ربما تكون جميع الأحزاب السياسية الرئيسية الثلاثة تحت قيادة كاثوليك رومان. وكان تشارلز كينيدى زعيم الأحرار الديموقراطيين واحدًا منهم بالفعل، وكذلك كان إيين دونكان سميث، فى ذلك الوقت ينافس على زعامة حزب التورى (وقد نجح فى ذلك). **كما أن تونى بلير معروف بأنه متزوج من كاثوليكية وله أولاد كاثوليك، يذهب معهم بانتظام إلى قداس يوم الأحد. كما أنه شُوهد عدة مرات فى كاتدرائية ويستمنستر بمفرده؛ مما يؤدى إلى التفكير فى أنه قد يتحول إلى هذا المذهب. وقد اعتاد بانتظام أن يصحب زوجته إلى المذبح للعشاء الربانى، حتى توقفت هذه الممارسة. وهى ضد القواعد الكاثوليكية، ولكنها شائعة بين الأنجليكان المتزوجين من كاثوليك. بناءً على طلب من الكاردينال باسيل هيوم**. وقد أوضح هاترسلى أنه هو نفسه لم يكن كاثوليكيا، بيد أنه لم يبح بسر التحول المثير الذى يقول إن والده كان قسيسًا كاثوليكيا مشهورًا فى شيفليد قبل الحرب العالمية الثانية، وترك منصبه الكنسى ليتزوج والدة هاترسلى.

وكان الهياج الذى سببته مقالته قليلا لدرجة أن زميله صاحب العمود فى جريدة الجارديان مايكل هوايت، زعم أيضا أنه أول من لاحظ الشىء نفسه بعد ذلك بثلاثة أشهر. وكتب: «منذ أقل من جيل مضى كان وجود الكاثوليك بمعدل ٢,٥ على رأس كل حزب من الأحزاب الثلاثة الكبيرة لدينا قد يبدو أمرًا غير وارد، كانت السيطرة على هذا النحو ما تزال قوية، ولكن أحدًا لم يكن يتحدث عنها غالبا، للموروث البروتستانتى فى بريطانيا على كل الأركان والشقوق العليا فى المؤسسة».

مرة أخرى لم تكن هناك شهية فى الصحافة لإثارة الجدل الدينى، الذى قد يأخذه البعض على أنه علامة على نضج الجماهير، والبعض على أنه إثم وجهل. **وهذا العزوف عن ملاحظة وجود الدين فى الحياة العامة حتى عندما يكون واضحًا كما اتضح أثناء رئاسة مارجريت تاتشر للوزارة. ففى وقت ما كان هناك ستة من اليهود العاملين فى وزارتها (أى ربع المجموع). لقد كان ذلك حقا أمرًا لا يستحق الذكر،** حتى على الرغم من أنه لم يكن من الصعب ملاحظة علاقة معينة بين السياسات التى

كانت تنتهجها ومبدأ مراعاة مصالح العمل لدى الجماعة اليهودية البريطانية. **وحسبما يقول جراهام تيرنر، الذى كتب فى صحيفة «الديلى تلجراف»، فإن الملكة سألت ذات مرة، روبرت رونس، الذى كان كبير أساقفة كانتربورى آنذاك، عما إذا كان يعتبر مسز تاتشر امرأة متدينة، ويقال إنه أجاب: «أظن أنها عبرانية أكثر منها مسيحية».**

* * *

والتحفظ الأمريكى حول تأكيد نفوذ الدين له أصول. وإذا تحقق المرء من وجود رغبة فى التناول الأكاديمى القياسى لكبحها، فإن هذه الرغبة إنما تتأتى إلى حد كبير من رفض تسليم ملكية ماضى أمريكا إلى الحركات الدينية المذهبية والأصولية، وهى تواقة تماما للاستيلاء على هذا الماضى. والخوف غير المعلن يبدو أنه من التسليم طواعية بأن جورج واشنطن أو توماس جيفرسون، مثلا، كانت لهما عقلية دينية فى زمانهما، ربما تكون ذخيرة أكثر من اللازم لأولئك الذين لهم عقلية دينية اليوم. إذ إن لهم أجندتهم الخاصة. وسوف يصيحون بسرور: «كان جورج واشنطن واحداً منا، ومن ثم فلتفعلوا ما نقوله»، حتى على الرغم من أن عقليته الدينية، فى الحقيقة، لم تكن أكثر من أنه كان ابن عصره. ومن المحتمل أنه كان متدينا مثل أقرانه، وكان الدين بالنسبة له مسألة خاصة. وفى مقدمته لطبعة Everyman من كتاب «الصلوات العامة «Book of the Comman Prayer » لكنيسة انجلترا، **يقدر «ديار ميد ماكو للوش» أن ثلثى الذين وقعوا إعلان الاستقلال وكذلك ثلثى الذين وقعوا الدستور الأمريكى كانوا من الأنجليكانيين الأمريكيين «الذين كانت حياتهم الدينية قد تشكلت بفعل كتاب الصلوات العامة سنة ١٦٦٢ م». وربما كان يضيف كذلك، والذين تشكل إحساسهم بالاستخدام الصحيح للغة الإنجليزية قد تشكل أيضا على نفس النحو، مع العودة كثيرا إلى النسخة المعتمدة للكتاب المقدس (والتى يسميها الأمريكيون نسخة الملك جيمس).**

وعادة ما يوصف واشنطن وجيفرسون، ومعهم جيمس ماديسون وبنيامين فرانكين وجون آدامز وكثيرون غيرهم، بأنهم يؤمنون بالرب وحده، ويفترض على أساس ذلك أنهم لا يكترثون دينيًا، ولو أنهم ليسوا معادين للدين، فهم أبناء عصر التنوير وورثة ڤولتير.

وهناك مفهوم عميق الجذور بأن أمريكا برزت من طيات الحرب ضد بريطانيا ومن ثم كانت صياغة جمهورية جديدة علمانية. ولكن عندما صار المؤرخون بالتدريج أكثر اهتماما بالمصادر منهم بالنظريات، فثمة رأى آخر ينتشر ببطء. كان هناك قدر كبير من الدين فى أمريكا أواخر القرن الثامن عشر. وقد تشبعت به الثقافة واللغة، وكما يكتب ج. س. د. كلارك فى كتابه «The Language of Liberty»، وهو أحد الكتب بالغة الأهمية والتأثير، وعلامة على هذا التغير بين المؤرخين:

«قامت دراسات كثيرة للسياسة فى بريطانيا وأمريكا فى أواخر القرن الثامن عشر على أساس رؤية التنوير باعتباره عملية علمنة تحتضن كضرورة اتحادية الشك الأرستقراطى والمادية البورجوازية والتحرر البروليتارى من العلاقات الاجتماعية البروليتارية. ومع هذا فإن كلاً من هذه الأجزاء المكونة، واجه التحدى بشكل منفصل، وفى النهاية يتزايد التساؤل حول هذا التجمع نفسه... إذ إن تأييد النخبة للدين فى شكل الكنيسة القائمة كان قويًا، ويتم التأكيد عليه من فترة لأخرى فى الأزمات السياسية من عودة الملكية فى انجلترا إلى الثورة سنة ١٦٨٨م إلى التحدى الثورى الفرنسى فى تسعينيات القرن الثامن عشر وما تلاها. وقد فشلت الطبقات الوسطى فى المجتمع بشكل ملحوظ فى تطوير وعى جماعى، سواء كطبقة تجارية بورجوازية أو طبقة وسطى. وكان ارتباطهم بالكنيسة أو الانشقاق عنها أكثر وضوحًا حتى من ارتباط النخبة. وأخيرا إذا كانت نسب الحضور فى الكنيسة قد تدهورت فعلاً بين الناس بعد سنة ١٦٨٩م، فمن الواضح الآن أن هذا لا يمكن تفسيره ببساطة أو بسهولة على أنه تحرر فى نطاق نظام اجتماعى جديد. ولا شك فى أن الأشكال الأبوية قد عُدلت، بيد أن بنية السلطة والنظام كانت ما تزال مرتبطة بعالم عقلى يختلف جدًا عن النزعة النفعية فى القرن التاسع عشر. وكانت الكتابة التى تنسب تقليديًا إلى حركة التنوير فى انجلترا، بعيدة تماما عن كونها علمانية، مغرقة بالجدل اللاهوتى والكنسى، ولم يكن الانشقاق هو الطريق السريع إلى العلمنة...».

وترى بعض الدوائر فى عبارة «إيمان الآباء المؤسسين بالرب وحده» مرادفًا لعبارة «أبعدوا أياديكم الجمهورية اليمينية عن التعديل الأول» ومن المفترض - وهناك دليل على هذا - أن جزءا من الأجندة الخفية للنزعة الجمهورية اليمينية الجديدة لن تجلب إعادة تعريف أمريكا باعتبارها مجتمعًا مسيحيًا على عكس ما وعد به التعديل من

الفصل بين الكنيسة والدولة، على الرغم من بعض الوسائل مثل تمويل الضرائب للجماعات التى ترعى الكنائس، والسماح بالصلوات فى مدارس القطاع العام. بل إنه من المفترض أن المزيد من الأجندة الخفية التى هى رد فعل، مثل تنغيص حياة الشواذ جنسيًا، تتربص فى الخلفية. وتجنيد الآباء المؤسسين باعتبارهم ممن يحبذون الدين، أو حتى باعتبارهم أصحاب رؤية دينية للهوية الأمريكية، يعتبر أكثر وسيلة فعّالة لقلب المناقشة لصالح هذا المفهوم عن أمريكا المسيحية. ويجدر الالتفات إلى أن مصطلح «مسيحى» فى هذا السياق قد اختطفه الأصوليون ليشير إليهم هم فقط.

وليس كل الشك فى تدين الآباء المؤسسين آتيا من المعسكر المعادى للدين وحده؛ إذ إن الچيزويتى چوزيف كوترسكى من جامعة فوردهام، وهو يكتب عن معتقدات چيفرسون فى مجلة Crisis الكاثوليكية الأمريكية محذرًا قرّاءه:

«ومن الجيد أيضًا أن نتذكر أن چيفرسون وكثيرًا من زملائه، ومنهم بنيامين فرانكلين وچورچ واشنطن وتوماس پين، كانوا جميعا موحدين (يؤمنون بالرب وحده دون الوحى والأنبياء) ولم يكونوا مسيحيين».

والرب عند هؤلاء هو السبب الأول الذى خلق العالم وأسس قوانينه الثابتة والكونية. ولكن إصرارهم على تصور هذا الرب مثل المالك الغائب يستبعد عن قصد أية إشارة إلى الرعاية الربانية أو التدخل الإلهى فى التاريخ. وكثير من فلاسفة التنوير الذين آمنوا بالربوبية كانوا ينتقدون على الدوام حتى إمكانية الوحى الإلهى، دعك من زعم المسيحية بضرورة مثل هذا الوحى.

«وبينما لا تحرز الربوبية الصارمة بانحرافها الصريح - كما أبرزه ڤولتير - سوى قدر قليل من التقدم فى أمريكا، فإن هناك صيغة توحيدية أكثر نعومة من الربوبية تميل إلى النضال على هذه الأرض. وعلى مر الزمان ضربت هذه العقيدة جذورها بثبات بين المثقفين الأمريكيين فى الفترة الاستعمارية، الذين اعتبروا أن المسيحية العلمانية الديانة الطبيعية التى يعتنقها أى شخص مثقف. ومثل الكتاب المقدس على طريقة چيفرسون الشهيرة فى القص واللصق، فإن هذا النوع من المذهب الربوبى يرفض العناصر الخارقة للطبيعة فى المسيحية، ولكنه حفظ مكانًا مهمًا للأخلاق المسيحية وكان باستمرار يقدم نغمة دينية مخلصة...».

ورفض «العناصر الخارقة للطبيعة فى الدين»، والتى بدونها، بالنسبة لشخص له

مثل عقلية كوتر سكى، لا يكون الدين دينًا حقًا على الإطلاق، كان ما اعتبره چيفرسون ومن سلك طريقه رفضًا للعناصر الخرافية فى الدين. وذلك يعنى فى الحقيقة رفض المعجزات، كما جاء فى النسخة التى طبعها چيفرسون [من الكتاب المقدس] والتى اعتنى بحذف المعجزات منها. وما لم يلاحظه كوترسكى هو أن إله عالم چيفرسون كان متدخلاً وصاحب معجزات كما ينبغى لأى إله، ولكن تدخلاته كانت من خلال يد العناية الإلهية الخفية. والواقع أن العناية الإلهية موجودة بكل مكان على حين أن المعجزات تحديدا نادرة، مثل الرب الذى يؤمن به من يؤمنون بالتدخل الإلهى.

هل هذه الديانة الأمريكية العلمانية أو المدنية بديلة عن المسيحية؟ إن الدليل يكشف عن أنها مطعمة بالمسيحية كما هى، وليست متبناة لكى تكون معارضة لها؛ إذ إن الرموز الواردة فى الكتاب المقدس قد استخدمت، بوعى وبلا وعى؛ لكى تؤكد فى أذهان الأمريكيين البروتستانت فيما بعد الثورة أن الانفصال عن انجلترا كان مقدراً من الرب. لقد كانت كلها جزءًا من الخطة الإلهية، وهى الخطة نفسها التى ساعدت الإسرائيليين القدماء على الهرب من فرعون تحت قيادة موسى. وكما أعلن توماس پين فى كتابه ذى التأثير الواسع «Common Sense»:

«لم يكن هناك أحد يرغب حقا فى المصالحة أكثر منّى، قبل يوم ١٩ أبريل ١٧٧٥ الحاسم، ولكن فى اللحظة التى عرف فيها الحدث الذى وقع ذلك اليوم، رفضت مزاج فرعون انجلترا العاتى المتجهم إلى الأبد، واستنكفت الدنيء، الذى من خلال لقبه «أبو الشعب» الذى يتظاهر به يستطيع أن يستمع دونما مشاعر عن ذبح شعبه وينام ملء جفونه ودماؤهم على روحه». [كان يوم ١٩ أبريل هو يوم الهجوم البريطانى على ليكسنجتون، ويعتبر أول افتتاح للحرب].

ويحتفظ قسم المخطوطات فى مكتبة الكونجرس بأوراق تتعلق بالاقتراح الذى قدم سنة ١٧٧٦م، وهى تظهر المدى الذى كان بنيامين فرانكلين وچيفرسون الرئيس الثالث - الذى يعد عادة الأكثر علمانية بين الآباء المؤسسين - يفهمان به الثورة الأمريكية بمصطلحات الكتاب المقدس. **ففى ٤ يوليو ١٧٧٦ م، وهونفسه يوم الاستقلال، عين الكونجرس فرانكلين وچيفرسون وچون آدامز «لكى يضعوا شعاراً للولايات المتحدة الأمريكية». وقد عدّل اقتراح فرانكلين القصة الواردة فى**

الكتاب المقدس عن انشقاق البحر الأحمر. وفى البداية أوصى چيڤرسون بـ «بنى إسرائيل فى البرية تقودهم سحابة فى النهار، وعمود من النار فى الليل...». ثم تبنى اقتراح فرانكلين وأعاد كتابته. ومراجعة چيڤرسون اقتراح فرانكلين هو الذى قدمته اللجنة إلى الكونجرس يوم ٢٠ أغسطس، ولكن، حدث أنه لم يتابع طريقه به. وبالنظر إلى آراء چيڤرسون المعادية للمعجزات، يستلفت النظر أن الصورة التى اختارها كانت إعجازية تماما، على حين كانت صورة فرانكلين، كما سنناقشها لاحقا، تشير إلى مجرد تدخل العناية الإلهية لإنقاذ بنى إسرائيل (ولا بد أنه كان مدركًا تمامًا لمختلف التفسيرات غير الإعجازية لانشقاق البحر، مثل تأثير الرياح والمد والجزر).

وعلى ما يقال فإن نمط الربوبية(*) بين النخب المتعلمة فى انجلترا وأمريكا لم يستمر طويلا فى البقاء؛ إذ إن نوعًا من الإحياء الدينى اكتسح العالم الناطق بالإنجليزية، ولا شك أن تجاوزاته أعطت النخب الفرصة للتعبير عن وجهة نظر تستهجن الحماسة الشعبية. فقد كان هناك سكون فى مستوى الإثارة الدينية بعد ما يسمى الصحوة الدينية الأولى - وهو سكون تصادف بشكل أو بآخر مع الفترة الثورية - قبل الصحوة الثانية، التى عمّقت الالتزام الأمريكى بالپروتستانتية الأنجليكانية خارج هذه المناطق، مثل نيو إنجلاند، التى لم تفقد حماستها أبدًا. وفى ذلك الحين حدث أن سلمت الأنجليكانية معظم الأرض التى استحوذت عليها إلى الثورة. (كان كثير من رجال الكنيسة الأنجليكان من التورى، ورحلوا إلى كندا). والشخصية الدينية لانجلترا وأمريكا، التى كانت على الدوام مختلفة فى التأكيد، بدأت تختلف نوعيًا؛ إذ إن النخب الأمريكية ربما تكون قد غازلت مذهب الربوبية باختصار، بيد أن التفلسف المجرد ليس، ولم يكن أبدًا، مما يعجب الأمريكيين. ولاحظ أليكسيس توكيڤيل الذى جاب أنحاء أمريكا فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر فى كتابه «Democracy in America»: أظن أنه لا يوجد فى أى بلد فى العالم المتحضر اهتمام أقل بالفلسفة مما هو حادث فى الولايات المتحدة. فليست هناك مدرسة فلسفية خاصة بالأمريكيين؛ وهم يهتمون اهتمامًا قليلاً جدًا بالمدارس التى تنقسم أوروپا إليها، وأسماؤها لا تكاد تكون معروفة لديهم».

(*) الربوبية هى الإيمان برب للكون، لا يُشترط أن يكون طبقًا لما جاء فى الكتاب المقدس - المترجم.

وغالبًا ما يتم التعامل مع مذهب الربوبية الذى شاع أواخر القرن الثامن عشر فى أمريكا على أنه السابقة التى خرجت منها العلمانية. وهى غالبا ما تعرف بأنها قيم التنوير، التى تم الأخذ بها فى الديانة العلمانية الجديدة للماسونيين الأحرار التى ينتمى إليها كثير من الآباء المؤسسين. وقد يكون أقرب للحقيقة أن نقول، مع أخذ التجربة الإنجليزية فى الحساب هنا أيضًا، إن مذهب الربوبية قد أفرز مذاهب عديدة ربما يكون أكثرها حظًا فى الاعتراف ليس هى اللا أدرية العلمانية وإنما البروتستانتية المتحررة (فى المذهب الأنجليكانى خاصة). كان هذا الفرع من التيار العام للمسيحية هو الأكثر انفتاحًا لاكتشافات البحث النقدى فى الكتاب المقدس، الذى كان آخذا فى الظهور فى ألمانيا بحلول منتصف القرن التاسع عشر، وهى الأرضية التى قام عليها رفض الدراسات لقصص المعجزات. وكان هذا الفرع من المسيحية الذى واجه أقل قدر من الصعوبة فى تناول أعمال تشارلز داروين، كما أنه كان على أتم الاستعداد للموافقة على أن روايات الخلق فى سفر التكوين خرافات وأساطير.

واللاهوت المتحرر، مثل مذهب الربوبية، يميل صوب التوحيدية (وهو مذهب لطائفة تنكر الثالوث)؛ لأنه لا يستريح لعقيدة أن المسيح هو ابن الله المتجسد. ونوع الديانة التى يستهجنها التحرريون أكثر من غيرها هى الكاثوليكية الرومانية؛ بسبب عقيدتها ومعجزاتها وثقتها، والمذهب الإنجيلى المحافظ (والمعروف كذلك باسم الأصولية البروتستانتية) بسبب ثقته فى الكتاب المقدس واعتماده عليه، وإصراره على «قفزة العقيدة» أو تجربة شخصية للخلاص، التى تبدو على النقيض من المبادئ العقلانية. وثمة شىء واحد يمكن أن نكون متأكدين منه هو أن أولئك الآباء المؤسسين لأمريكا والذين أطلق عليهم اسم «الربوبيين»، أيًا كان قدر التبرير، لابد وأنهم كانوا يتفقون صراحة مع البروتستانت الليبراليين فيما كانوا يكرهونه أكثر من غيره.

وسواء كان چورچ واشنطن ربوبيًا «ناعمًا»، أو لم يكن، فإنه كان على إيمان قوى بالرعاية الإلهية، أى يد الرب الخفية التى توجه شئون الناس صوب صالحهم. وفى خطابه الافتتاحى الأول رئيسًا للولايات المتحدة قال مثل هذا وأكثر:

«سيكون من غير الملائم بتاتًا أن نحذف فى هذا الفعل الرسمى الأول تأييدى الحماسى لأن الرب العظيم الذى يحكم العالم، والذى يرأس مجالس الأمم، والذى يمكن لمساعداته الرعوية أن تعوض كل نقص إنسانى، وأن بركاته قد تكرس لحرية

شعب الولايات المتحدة وسعادته، حكومة أسسوها بأنفسهم لهذه الأغراض الأساسية، وقد تساعد كل أداة استخدمت فى إدارتها لإنجاز الوظائف التى تظللها رعايته بنجاح. وفى تقديم الطاعة والولاء للخالق العظيم الذى خلق كل خير عام وخاص، أؤكد لنفسى أنه يعبر عن عواطفكم مثلما يعبر عن عواطفى، وعواطف الإخوة المواطنين على نطاق واسع. وليس هناك شعب يمكن أن يعترف ويحب يد الرب الخفية التى توجه شئون العالم أكثر من شعب الولايات المتحدة. فكل خطوة تقدموا بها لتحقيق شخصية وطن مستقل تبدو أنها كانت متميزة بنوع من الرمز الدال على الرعاية الإلهية، وفى الثورة المهمة التى تم إنجازها بنظام حكومتهم المتحدة، فإن التشاور الهادئ والموافقة الطوعية لهذا العدد الكبير من الجماعات المتمايزة والتى نتج عنها الحدث، لا يمكن أن يقارن بالوسائل التى تم بها تأسيس معظم الحكومات، دون الرجوع إلى الامتنان الدينى، مع توقع متواضع للبركات التى يحملها المستقبل والتى يبدو أن الماضى قد بشَّر بها».

كانت العناية الإلهية أقوى فعلاً من المعجزات. فبدلاً من أن تكون شديدة الندرة ومرتبطة بحوادث معينة، مثلما هى الحال فى الكاثوليكية، فإن مفهوم العناية الإلهية الرحيمة غطى كل شىء تقريبًا. فكل طفرة محظوظة تصبح تدخلاً إلهيًا. هل ساقت الريح السفن الإسبانية إلى الصخور سنة ١٥٨٨؟ لقد كان ذلك بفعل العناية الإلهية. هل نجا المستوطنون البيوريتان الأصليون من أول شتاء؟ كان الفضل فى ذلك للعناية الإلهية. هل قضى الجيش الناشئ على قوات الملك؟ لقد كانت العناية الإلهية وراء ذلك. هل عاش جيش واشنطن المهلهل أثناء محنته فى ڤالى فورج؟ لقد كان هذا أيضًا من فعل العناية الإلهية. وفى لاهوت العناية الإلهية لا يتدخل الرب سوى بهذه الطريقة لصالح العادل والمستقيم. **أو إذا قلبنا المعادلة، يكون الرب جانب الرابح وبهذا يكون «الحق قوة»(*). هذه الاعتقادات مكونات مهمة ليس بالنسبة للرؤية الأصولية للعالم فقط، فلم تكن مرفوضة ممن يسمون أنصار مذهب الربوبية فى أمريكا أواخر القرن الثامن عشر، والذين كانوا على قناعة تامة بأن الرب الذى لم يكونوا يعرفونه تمامًا يقف إلى جانب أمريكا. وهذه بطبيعة الحال طريقة إنجليزية خالصة فى النظر إلى الأمر. وإذ كانوا هم الشعب المختار، والرعاية الإلهية إلى جانبهم، فإن هذا كله جزء من الشىء نفسه.**

(*) تلك ترجمة القول الأمريكى المأثور: Might is Right ـ المترجم.

والجدل الحى فى الولايات المتحدة حول المعتقدات الدينية للآباء المؤسسين ليس فى الحقيقة جدلاً حول الحقيقة التاريخية بحد ذاتها، ولكن حول معركة للسيطرة على الذاكرة الجماعية الأمريكية، فى سبيل السيطرة على طريق أمريكا فى المستقبل على النحو المتصور. وكل من يريد طعمًا لهذه الرفاهية الثقافية لا يحتاج سوى أن يدخل على أحد المواقع العديدة فى شبكة الإنترنت المكرسة لأحد جانبى هذا النزاع المستعر. وكل تصريح دينى من شخص مثل چيفرسون يتم حشده على موقع واحد، وكل ما ينطق به ضد الدين يتم حشده على موقع آخر. ومن الصعب تصوير أن الإنجليز يحصلون على شىء مماثل فى إثارته مثل المعتقدات الدينية لدوق ويلنجتون، مثلاً، ولكن ربما كان تقيًا فى العلن وشكاكًا فى السر، تمامًا مثل رجال الدولة الأمريكيين الذين تستمر المعركة حولهم. هذه هى الكيفية التى كان عليها مثل هؤلاء الرجال وما يزالون عليها إلى حد كبير. وإذا كان النوع الأنجلو سكسونى من البروتستانتية، كما قال أحدهم ذات مرة، يميل إلى أن يتسم بالتخفيف، فإن هذا لا يحميها من التعصب الشرس.

ويبدو الحكم المستقر للمؤرخين المحترفين الآن على أنه يقرر أن الأمريكى المتوسط فى الفترة الثورية، بما فى ذلك المشرع الأمريكى العادى، كان شخصًا متدينًا، على الأقل من الناحية السطحية للعقيدة. أما مدى عمق ما نسميه اليوم روحانياته فقد يكون موضوعًا لمزيد من الجدل. بيد أن تلك كانت أوقات تدين بشكل عام؛ إذ كان التدين متوقعًا. وقد استنتج جامعو معرض مكتبة الكونجرس سنة ١٩٩٨م، والقائم على أساس النصوص الرسمية وغير الرسمية للفترة، من الأدلة المعروضة:

«الكونجرس القارى الكونفدرالى، هيئة تشريعية حكمت الولايات المتحدة من ١٧٧٤م إلى سنة ١٧٨٩م، وقد احتوى على عدد غير عادى من الرجال المتدينين بعمق. وكمية الطاقة التى استثمرها المجلس فى تشجيع ممارسة الدين فى الوطن الجديد فاقت تلك التى أنفقتها أية حكومة وطنية أمريكية تالية. وعلى الرغم من أن مواد الاتحاد الكونفدرالى لم تمنح السلطة رسميًا إلى الكونجرس بأن يشغل نفسه بالدين، فإن المواطنين لم يعترضوا على مثل هذه الأنشطة. وغياب الاعتراض على هذا النحو يشى بأن كلاً من المشرعين والعامة اعتبروا أنه من المناسب للحكومة الوطنية أن تطور المسيحية غير المسيطرة وغير المجادلة.

وعين الكونجرس قساوسة له وللقوات المسلحة، وراقب نشر الكتاب المقدس، وفرض الأخلاقيات المسيحية على القوات المسلحة، كما منح الأراضى العامة لنشر المسيحية بين الهنود الحمر. والإجازات الوطنية فى عيد الشكر وفى يوم التواضع، والصوم والصلاة، كانتا تعلنان من قبل الكونجرس مرتين سنويا على الأقل طوال الحرب. وكان الكونجرس يسترشد «بلاهوت ميثاق»، وهو مذهب إصلاحى، عزيز بصفة خاصة على قلوب البيوريتان فى نيوانجلاند، يقول إن الربَّ ربط نفسه بميثاق مع أمة وشعبها. وهذا الميثاق اشترط أنهم «قد ينعمون بالرخاء أو تحل عليهم النقمة» وفقًا لطاعتهم العامة أو عصيانهم العام كما تظهر. وكانت الحروب والثورات، وفقًا لهذا، تعتبر نقمة، عقابًا إلهيًا على الخطايا يمكن للأمة أن تنقذ نفسها منه بالتوبة والإصلاح.

وأول حكومة وطنية للولايات المتحدة كانت مقتنعة بأن الرفاهية العامة فى أى مجتمع تعتمد على حيوية ديانته. **ولا شىء سوى روح من الإصلاح الكونى بين كل طبقات ودرجات مواطنينا، حسبما أعلن الكونجرس إلى الشعب الأمريكى، «سوف يجعل منا شعبًا مقدسًا بحيث قد نصبح سعداء».**

وفى افتتاحية كتاب «American Exceptionalism»، يتناول سيمور ليبست اعتراضًا على التأكيد على العوامل الدينية فى مناقشة الشخصية الخاصة للمصير الأمريكى (والهوية الإنجليزية بالتوازى) مؤداه أنها ربما كانت عوامل مهمة ذات مرة، بيد أنها لم تعد كذلك.

«بعض الذين ينتقدون التأكيد على الاستثنائية الأمريكية كطريقة لفهم الحوادث الجارية والمستقبلة، قد تساءلوا عن الإصرار على أن العوامل التاريخية المرتبطة باستيطان المستعمرات وأيديولوچية المؤسسين مستمرة فى التأثير على السلوك والقيم الأمريكية. . . . [والأيديولوچية التى يشير إليها هى المذهب البيوريتانى بالطبع]. لقد تعامل ماكس ڤيبر مع هذا الموضوع بطريقة ممتعة وذكية. . . . إذ إنه اقترح أن التاريخ يعمل لحسم المستقبل بنفس الطريقة التى يحسم بها الزهر لعبة ما. ووفقا لڤيبر، بفهمه أن تاريخ أمة ما يبدأ مثل لعبة لم يتم رمى الزهر فيها فى البداية، بيد أنه لا يلبث أن ينحاز إلى الاتجاه الذى يأخذه أى ناتج من الماضى. وهو ناتج له

شبيه بالطريقة التى تتشكل بها الثقافة . وفى كل مرة يظهر فيها الزهر برقم محدد تتزايد احتمالات ظهور هذا الرقم ثانية» .

وأكثر مؤلفات ڤيبر تأثيرًا "The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism" كان مأخوذًا من ملاحظاته فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين عن ألمانيا، ومؤداها أنه فى أكثر الأجزاء كلڤينية [أى أتباع چون كالڤن] فى البلاد كانت الرأسمالية أكثر نجاحًا . وقد لاحظ أن المذهب الكالڤينى قد ترك تأثيره على شخصيات أتباعه، بفرض أعباء روحية وعاطفية مؤلمة عليهم، وفوق هذا وذاك خوفًا من اللعنة . **فالعمل الشاق وإنكار الراحة أو المتعة، هما العلامتان الدالتان على «الأخلاق البروتستانتية»، وأصول رأس المال التى تم تحصيلها كانت تعتبر علامة على موافقة الرب، ومن ثم كانت علامة على أنه ربما أمكن تجنب اللعنة** . وحيثما كان المذهب الكالڤينى سائدًا، كانت هذه الفلسفة تشكل ثقافة المجتمع بأسره . وأولئك الذين تم إدخالهم فى تلك الثقافة كانوا يتشكلون نفسيًا بها، سواء كانوا يقبلون عن وعى مذاهب كالڤن الدينية المحددة أم لا . فما أن يتم رمى الزهر، يظل يرمى باستمرار . وربما كان يتكلم عن نفسه أيضا : فهو متشكك فى الأمور الدينية بينما كان أبوه كالڤينيًا . وحتى إذا لم يعد هناك كالڤينيون يؤمنون بهذا المذهب على الإطلاق، فإن ثقافة تشكلت بفعل الكالڤينية سوف تكون جادة فى العمل ومتوجسة من المتعة، كما أنها ستكون فى الوقت نفسه ثقافة طماعة ومذنبة . ويمكن للقارئ أن يحكم بنفسه إلى أى مدى يصدق هذا على انجلترا أو أمريكا فى أيامنا هذه .

كان الكالڤينيون فى الواقع أصوليين يتبعون الكتاب المقدس حرفيًا بالمعنى الكامل للمصطلح ؛ إذ كان الدين يتعلق بالحياة كلها، وكان الكتاب المقدس مرجعهم الوحيد فى مسائل الدين . وخريطة الدين التى كانت مفتوحة أمامهم بأفكار چون كالڤن (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤م)، الأكثر راديكالية بين كل المصلحين البروتستانت فى القرن السادس عشر، كان مركبًا ومعذبًا، بل ومصدر تهديد . وكانت المطالب التى تفرض على المسيحيين ضاغطة . ولكى تعرف ما يطلبه الرب من المرء، كان من الضرورى أن تبحث فى الكتاب المقدس بدقة وتهتم دونما نهاية حول معنى كل فقرة . أما الحركة البروتستانتية الموازية والتى بدأها مارتن لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م)

فلم تكن أقل تركيزاً على الكتاب المقدس. إذ كانت لها أيضًا مطالب ضاغطة. وقد اتفق كل منهما على أن الإنسانية تلقت رسالتها عن الخلاص مباشرة من صفحات كلمة الرب وليس من خلال القساوسة والكنيسة، ووافق كلاهما على أن البشرية نفسها كانت داخليًا شريرة ومحرومة وعاجزة - بدون مساعدة الرب - عن القيام بأى فعل طيب. وقد جلبت المسيحية البروتستانتية إلى مركز الانتباه المسيحى، وقد سهل هذا كثيرا حقيقة أن صناعة الطباعة - الجديدة نسبيا - قد جعلت من الممكن أخيراً إنتاج الكتب على نطاق واسع. ويكاد يمكن للمرء أن يقول إن الإصلاح كان عليه أن ينتظر حتى اختراع الطباعة قبل أن يحدث. فبدون نسخة متاحة من الكتاب المقدس فى اللغة المحلية، كان الاعتماد على حكمة القساوسة وتوجيهاتهم أمراً حتميًا.

كانت الكنيسة الكاثوليكية دائمًا تغذى المؤمن بمحتويات الكتاب المقدس من خلال مصفاة تفسيرها الرسمى الخاص. وكانت النظرية هى أن كمال الديانة المسيحية متضمن فى تعاليم الكنيسة الرسمية، وكان الكتاب المقدس رفيقًا لهذا، بغرض الإيضاح، والتنوير، والحض على الفضيلة. ولم يكن يعتبر بمثابة المصدر الأولى للعقيدة، على الرغم من أنه كان هناك مبدأ مقبول بأن تعاليم أية كنيسة لا يجب أن تتعارض مع العهد الجديد. كانت الكنيسة نفسها هى التى قررت، فى القرن الرابع، أى النصوص تنتمى إلى النسخة الرسمية، أو القانون الكنسى، وأيها لا تنتمى. وفى دائرة معارف اللاهوت «The Encyclopedia of Theology» وصف لخاتمة عملية طويلة من الجدل والقرار على النحو التالى:

«فى سنة ٣٦٧ حدد أثناسيوس الكتب السبعة والعشرين للعهد الجديد، بالإضافة إلى أسفار العهد القديم، باعتبارهما سويًا يحتويان على القانون الراسخ (ليس لأحد أن يضيف شيئا أو يحذف شيئا منهما . . .) وفى الفصل الثانى من مرسوم چيلازيوس الذى يرجع إلى مجمع روما سنة ٣٨٢ تم تحديد الأسفار السبعة والعشرين التى يضمها العهد الجديد، وتم التأكيد على هذا سنة ٤٠٥م بخطاب من البابا إنوسنت الأول وكذلك من قبل المجامع المسكونية التى عقدت فى أفريقيا، هيبو رچيوس (٣٩٣) وقرطاچ (٢٩٧ ، ٤١٩م). وبعد القرن الخامس لا توجد مراسيم جديدة بشأن القانون الكنسى. . . .».

وإلى هذا المدى فليس من الشطط أن نتحدث عن الكتاب المقدس بوصفه من خلق الكنيسة. لقد كانت السلطات الكنسية، فى القرارات التى أوردناها سابقًا، هى التى رفضت بعض النصوص وقبلت البعض الآخر، وفقًا لتوافقها أو تناقضها مع الديانة الصحيحة أيامها. وثمة جاذبية مسبقة «للكتاب المقدس» باعتبارها المصدر الأسمى للعقيدة التى يمكن بها الحكم على الكنيسة نفسها، قبل سنة ٣٦٧م، وهو أمر ليس منطقيًا ببساطة. هذه الصعوبة عاودت الظهور على السطح فى القرن السادس عشر، حينما وضع المصلحون البروتستانت الرئيسيون من جديد أصول القانون الكنسى، كما أطلق على قائمة الأسفار التى اعتبرت أصيلة روحيًا، ونبذوا عدة أسفار (باعتبارها مزيفة: أبو كريفا) لم تكن ضمن القانون العبرانى الأصلى كما حددته السلطات اليهودية، ولكن الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الشرقية الأرثوذكسية قبلتها منذ ألف سنة مضت. وكان السبب فى هذا راجعًا جزئيًا إلى أن المصلحين لم تعجبهم العقائد التى ظهر أن الأسفار المرفوضة كانت تحتويها.

وبعد حركة الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر، اتهمها البروتستانت الذين كانوا معادين للكنيسة الكاثوليكية بأنها تشوش معنى نص الكتاب المقدس، بحيث لا تشمل محتوى التعاليم الكاثوليكية. وقد زعموا أن هذا هو السبب فى أن الكنيسة كانت عازفة تمامًا عن السماح بالاطلاع المفتوح على الكتاب المقدس كما عارضت نشر الترجمات الإنجليزية. ولا شك فى أن هناك قدرًا من الحقيقة فى هذا. بيد أنه لم يعد ممكنًا وجود تفسير موضوعى غير منحاز للكتاب المقدس كما هو الحال بالنسبة لمسرحيات شكسبير. وحتى مع وجود أعظم المقاصد النبيلة فإن نفس النص يمكن أن يعنى عدة أشياء مختلفة. ومن ثم فإن تلك الأجزاء من الكتاب المقدس التى أولتها الكنيسة الكاثوليكية أهمية هامشية فقط، يمكن الآن أن تؤخذ بجدية على أنها كلمة الرب كما يمكن التدبر فى معناها مجددًا. وكان هذا مهمًا بشكل خاص فى تلك القصص التى يرويها العهد القديم والتى فسرتها الكنيسة على أنها تتنبأ وتمهد لقدوم المسيح ووجود الكنيسة ذاتها فيما بعد.

ولم يشعر البروتستانت أن عليهم أن يقبلوا ذلك التفسير، حتى لو عرفوا به. فقد

كان بوسعهم أن ينظروا إلى تلك الفقرات مجددًا: وكان كل شخص يمكن أن يفسر الكتاب المقدس بطريقته. ولم يكن بوسع البروتستانتى الطيب تحديدا أن يقبل تفسيرات لفقرات معينة من العهد القديم اعتبرتها الكنيسة الكاثوليكية توقعًا لاهتمام الرب بصالحها. وعلى العكس، فقد وجدوا نبوءات مختلفة تمامًا (أساسًا فى العهد الجديد) تخص الكنيسة الكاثوليكية: إنها كانت وكيل الشيطان الذى يجب محاربته وهزيمته قبل نهاية الزمان. وبغض النظر عن التهمة البروتستانتية العامة بأن الكنيسة فى العصور الوسطى قد أخفت نص الكتاب المقدس عن الناس؛ لأنها بوضوح قايضت تعاليم الكنيسة، فهى تهمة جدلية أكثر من كونها حكمًا تاريخيًا. وهناك مساحات حيث كان المعنى الدقيق لنص الكتاب المقدس محل نزاع ساخن بين المصلحين البروتستانت والمصلحين الكاثوليك المضادين. ولكن حيث إنه كان واضحًا لأى قارئ عارض - لوسُمح له بأن يطلع على النص - لا يمكن لأحد أن يقول إن الكنيسة قد أخطأت. والحكم على تعاليم الكنيسة من خلال الكتاب المقدس ممارسة أكثر صعوبة من هذا. وهناك نصوص عديدة يبدو معناها الأكثر وضوحًا هو المعنى المفضل تقليديًا من جانب البروتستانت، ولكن نصوصا أخرى تميل صوب التفسير الكاثوليكى بدرجة أكبر.

وما زعم المصلحون أنهم وجدوه فى الكتاب المقدس كان صيغة أكثر تبسيطًا من المسيحية، التى أخذت من التقوى المتزايدة عبر العصور، فكانت لها جاذبية قوية متجددة. وكثير من فروض الدين التى فرضت على الناس وفقًا لمذهب الكنيسة إما غابت تمامًا أو تم التلميح إليها فقط فى الكتاب المقدس. وبينما قالت التعاليم التقليدية: إن هناك سبعة أسرار مقدسة، كانت الأدلة المستمدة من الكتاب المقدس تشير فقط إلى اثنين. وإذا ما كانت الكنيسة هى المفسر الأصيل للمسيحية، ومرشدًا يعتمد عليه للوصول إلى المذهب الصحيح، فلا شىء من هذا يهم إذن. وإذا كان الكتاب المقدس هو المرشد الصحيح الوحيد، من ناحية أخرى، فإن الكنيسة تبقى متهمة بتشويش الإنجيل لكى يناسب أغراضها الخاصة. وعلى سبيل المثال فإن الممارسات الكنسية مثل ربط العلمانيين بالعشاء الربانى فى نوع واحد فقط، هو النبيذ، يبدو تناقضا صريحًا مع كلمة الرب. بينما كانت الأخلاقيات الشعبية فى

العصور الوسطى تعتمد على مثل هذه الآليات فى التذكرة بالرذائل والفضائل، فإن المسيحية الإصلاحية المعتمدة على الكتابُ المقدس قدمت العبارات المجردة والبسيطة للوصايا العشر. بينما كانت المسيحية الكاثوليكية فى العصور الوسطى معتمدة بقوة على الطقوس والصور والمساعدات المرئية. فإن المسيحية البروتستانتية التى أعقبتها اعتمدت إلى حد كبير للغاية على النصوص.

وإذا لم يكن هذا شيئا آخر، فقد كان حافزًا رئيسيًا على انتشار التعليم، على الرغم من أنه على مدى فترة طويلة كان هناك انحياز لصالح تعليم الناس العاديين القراءة دون الكتابة. والخوف الكامن لدى البروتستانت وخاصة البيوريتان فى انجلترا وأمريكا فى النصف الأول من القرن السابع عشر، كان مبعثه أن الديانة القديمة سوف تفرض من جديد عليهم بسلطة الدولة، وسيكون ممنوعًا عليهم العبادة طبقًا للشكل الجديد الذى اختاروه للمسيحية. وبما أن الديانة القديمة لم تكن خاطئة وحسب وإنما كانت هى نفسها بوابة الجحيم، من وجهة نظرهم، فإن التهديد كان مميتًا. **وذكرى اضطهادات البروتستانت تحت حكم مارى تيودور فى منتصف القرن السابق كانت محفوظة حية تمامًا من خلال قراءة كتاب فوكس «Book of Martyrs» وهو الكتاب الوحيد، بغض النظر عن الكتاب المقدس، الذى قيل إنه يمكن أن يوجد فى كل كنيسة ومنزل فى المملكة**. وربما كان عملاً باهرًا من أعمال الدعاية أكثر منه دراسة تاريخية دقيقة، ولكن أولئك الذين قرأوه صدقوه حرفيًا. هذا، بالإضافة إلى التقارير الحية (والتى تحمل قدرًا من المبالغة) عن اضطهاد البروتستانت تحت ظل محاكم التفتيش الإسبانية، أقنعت أجيالاً من البروتستانت الإنجليز والأمريكيين بأن الكاثوليكية الرومانية كانت هى العدو القاسى الشرير لكل شىء عزيز عليهم.

ومع فهم الحقيقة متأخرًا، يبدو أن الجانبين كانا يختلفان أشد الاختلاف فى مواقفهم من الكتاب المقدس عندما يتعلق الأمر بفهمها لعلاقة العهد القديم بالحوادث اللاحقة. وهو يتألف إلى حد كبير من سرد زمنى متتابع لتاريخ بنى إسرائيل، شعب الرب، أمة أوقبيلة، أو مجموعة من القبائل، مكثت زمنًا طال أم قصر سويًا كمجتمع مرئى، خلال كل ما مر بهم من محاولات مختلفة. واعتقدت

الكنيسة أنها هى نفسها صارت شعب الرب، ولكن التشابه مع بنى إسرائيل كان أبعد ما يكون عن الكمال. فالكنيسة لم تكن أمة ولا مجتمعًا مرئيًا يتمركز فى مكان واحد. لقد كانت جماعة دينية، منتشرة، وموجودة عبر كل الأمم فى العالم المعروف. وبما أن الكنيسة لم تكن أمة فإنها لم تفعل الأشياء التى تفعلها الأمم، مثل الاحتفاظ بالجيوش وخوض الحروب، أو غزو الأراضى، كما فعل بنو إسرائيل القدماء. فقد كانت معركتها روحية. وإذا ما كانت تريد النوع الآخر، مثل الزعم بتحرير الأرض المقدسة من المسلمين، فقد تعيّن عليها أن تطلب من الأمراء الكاثوليك أن يحاربوا من أجلها. ولكن البروتستانت رأوا العهد القديم بصورة أكثر حرفية. وبالنسبة لهم كانت إسرائيل الجديدة أمة مثلما كانت إسرائيل القديمة بالضبط. وبينما كانت كنيسة العصور الوسطى قد أضفت مسحة روحانية على رسالة العهد القديم، وتعاملت مع معظم ما جاء به على أنه مجاز مركب أومزاعم وادعاء، فإن البروتستانت أخذوه بقدر أكبر من الحرفية، وتعاملوا معه بقدر أكبر من السياسة.

وهكذا فإن الروايات الكبرى التى يسردها العهد القديم قد تجسدت دائما بقوة فى المذهب البروتستانتى. وقد اقترح بعض المؤرخين أن الأمريكيين - الذين يفتقرون إلى تاريخ طويل يخصهم - كانوا أسعد ما يكونون فى تبنى تاريخ بنى إسرائيل القدماء لتعويض هذا النقص. وقبل هذا، كان بوسع البروتستانت الإنجليز الأوائل أن يجدوا مزية مشابهة. وتناول تاريخ بنى إسرائيل باعتباره نوعًا من ما قبل التاريخ الإنجليزى شتت الانتباه عن ذلك «الما قبل التاريخ» الذى هو أقرب إليهم، أى تاريخ انجلترا كبلد كاثوليكى (والذى كان البيوريتان ينكرونه أو يخجلون منه). وعندما قام رئيس الوزراء ديڤيد لويد چورچ بتولى رئاسة الحكومة البريطانية التى أصدرت وعد بلفور سنة ١٩١٧م، الذى وعد اليهود بوطن قومى فى الشرق الأوسط، قال إنه ربما كان يعرف عن ملوك بنى إسرائيل أكثر مما يعرف عن ملوك انجلترا. وكان لابد لهذا أن يعكس حالة عقلية شائعة جدا بين معاصريه، لا سيما أولئك الذين على شاكلته.

* * *